قصة (شمس أغسطس)

بقلم الكاتبة "آلاء بشر"

الصباح الهادئ المعتاد، السادسة والربع بتوقيت القاهرة، شمس أغسطس أكثر نشاطاً وتملأ الغرفة بالضوء رغم محاولات الشباك الخشبي والستائر الحرير في الاتحاد للاحتفاظ بالجو الباكر علها تحصل على قدر أكبر من النوم رفقاً بحالة الأرق التي صاحبتها أمس.

سرير واسع يكفي ثلاثة أشخاص من أبطال الفنون القتالية، تتوسطه بجسدها النحيل، لم يتغير وضعها التي استلقت به في الليل على ظهرها وهي عاقدة ذراعيها على ملأة وردية أعلى بطنها، عادتها وطريقتها المعتادة للنوم في الأوقات التي تكون على موعد لشيء عاجل أو نادر الحدوث، ككل ليلة امتحان تعطي جسدها الحق في الراحة وعقلها أشد يقظة، حتى أنه يظل حارساً الجسد يمنعه من التحرك على أي جانب.

الدقيقة الخامسة عشر بعد السادسة صباحاً تدق عقارب الساعة ويصدح المنبه معلنا عن الاستيقاظ ليوم جديد ومختلف في حياتها، تفتح عينها دون تذمر، ترفع ظهرها وترجع شعرها للوراء في حركة نشاط، تهمس لنفسها كأنها تتأكد أن كل ما أعدته الأمس جاهز بعقلها ولم يتطاير داخل كابوس مزعج.

صابرين حامد إسماعيل، بكالوريوس تجارة، أجيد الإنجليزية وأتقن الفرنسية وأحسن الأصغاء مع قابلية أبدية للتعلم، أرغب في

العمل.

ابتسامة مشرقة تليق بصباح حياة عملية، النشاط سيد الموقف، تنهي استحماما بالماء البارد وترتدي ثيابا أنيقة من القطن، ترتب شعرها

وتعقد ساعتها حول معصمها وتلملم أشياءها، تقطع المسافة من حجرتها إلى الشرفة حيث يجلس أبيها.

- صباح الجنة يا أبي.
- صباح السعي أيتها الصابرين، الشروق يأتي من وجهك كل صباح، أرجو لك كل توفيق، أود أن أصطحبك في يومك ككل مرة أمسك بيدك في بداية كل عام دراسي، لكنه الوقت للاعتماد على نفسك، سترهقك الشوارع ويطيل الطريق وتقسو عليك شمس أغسطس، لكن تذكري دوماً الصبر الذي هو أسمك.
- قد نبت غرسك يا أبي وترعرع، سأقطع الطريق متكئة على أملي، عاقدة العزم على الوصول وأشد تمسكا بهدفي، ستفخر بثمرة تربيتك في يا أبي.

تخرج من الشرفة إلى أن تصل لباب المنزل ومنه إلى الشارع أو الطريق الذي لا وجهة له.

شمس أغسطس تحاربها بأشعتها وهي تواجهها بالأمل، سيارات لا نهاية لها لكنها لا ترى إلا مستقبل مبهج، أصوات صاخبة ولا تسمع منها إلا نداء قلب ينبض بالحياة.

تحكم وضع نظارتها الطبية وتتأكد من قراءة اللافتة "تعلن صيدلية الشفاء عن حاجتها لآنسة للعمل"

ابتسامة انتصار وعقل يرقص من شدة الفرح، يبدو أن الطريق قريب من الحي يا أبي.

- مساء الخير يا سيدي، أنا صابرين حامد إسماعيل، بكالوريوس تجارة، أجيد الإنجليزية وأتقن الفرنسية وأحسن الأصغاء مع قابلية أبدية للتعلم، أرغب في العمل.
- هل تجيدين استخدام المواد المعقمة؟!
- نعم بالطبع.
- الوظيفة المتاحة هي أعمال النظافة.

جملة تصل حد الصاعقة أفقدت صوتي قدرته على الخروج من فمي، ماذا تقول يا سيدي! أي أعمال نظافة! ماذا عن دراستي للاقتصاد!! امتياز إجادة الفرنسية ما قيمته! المحاسبة وإدارة الأعمال والأرقام التي أصابتني بوساوس قهري متى تشفع لي وكيف تقيدني في أعمال النظافة!

لا أقل أبدا من دور سادة وسيدات النظافة، ولكنني أستسلم عند أول الطريق، سأتعب قليلاً يا أبي.

الأرقام واضحة كالقمر في ليلة صافية، تعقد حسابك بالجمع أو الطرح دون النظر لأية مشاعر دخيلة، علاقة مريحة واضحة النتائج والمعالم والمشاعر، "شركة النصر للاستيراد والتصدير" تعلن عن حاجتها لمحاسبين جدد.

يبدو أن الأرقام ستبادلني الحب تلك الظهيرة، سأكتب في سيرتي الذاتية بعد ذلك "أن الذين يعشقون الحب، سيعانقهم يوما ما"

- سيدي، أنا صابرين حامد إسماعيل، بكالوريوس تجارة، أجيد الانجليزية وأتقن الفرنسية وأحسن الأصغاء مع قابلية أبدية للتعلم، أرغب في العمل.

- أهلا بك، أخبريني عن نفسك.
- ستجدني إن شاء الله صابراً وعلى قدر عالٍ من الالتزام والتعلم والبذل.
- صدقيني، لا أود أن أطفئ شعلة الأمل داخلك، ولكن سياسة الشركة تتطلب صفات خاصة، تلك النحالة مع الملابس شديدة الاتساع لن يسمح لها بالانضمام لصرح عالمي، سامحيني.

يبدو أن الصدمات لا تأتي فرادي، هل كل هذا التخبط لأن يدك يا أبي لم تصحبني هذا الصباح! ما علاقة نحافتي بقدرتي على التعامل مع المحاسبة! صدقني أن الأرقام تعشقني كما أنا، لم يحدث أبدا أنها أهانتني لبشاعة ملابسي أو أن ملامح وجهي تصيبها بالاشمئزاز، أسفي عليك وعلى شركتك، لماذا لم تضف في الإعلان رغبتك في امتياز جمالي بالإضافة لشهادة تخرج جامعية!

تجلس في حافلة نقل عام تنعي حالها وتراجع خيباتها، الوظائف تتبخر مني يا أبي، كل الأبواب التي أطرقها موصدة من الداخل.

- ماذا بك يا فتاة.
- أبحث عن عمل واليوم في غاية القسوة يا سيدتي.
- هل انعدمت رؤيتهم! اسمعي.. هذا عنوان سيدة جارتي ذات ثراء، تبحث عن فتيات للعمل.
- هل هذا صحيح! أشكرك جدا! سأذهب لها في الحال! أشكرك على حسن صنيعك.

يرقص الأمل في داخلها ويشرق وجهها مع غروب الشمس، يبدو أن نهاية الطريق حقاً هي الوصول يا أبي!

تصعد البناية في حالة فرح شديدة، مساء الخير سيدتي، أنا صابرين حامد إسماعيل، بكالوريوس تجارة، أجيد الانجليزية وأتقن الفرنسية وأحسن الأصغاء مع قابلية أبدية للتعلم، أرغب في العمل.

أخبرتني السيدة جارتكم أنني سأجد لديك وظيفة.

- أهلا بك حبيبتي، دعك من أمور الرياضيات والشهادات وانظري للحقيقة.
- أي حقيقة يا سيدتي.
- حقيقة العالم، وأنت، انظري إلى جمالك! شعرك! عيونك، فقط العديد من الملابس اللامعة والكعب العالي، مساحيق تجميل وإعدام النظارة البائدة التي تزيدك بؤسا، مؤهلات أخرى أقصد، ستحصلين على ذهب وتنعمين براحة على حرير وسيارة تنتظر اشارتك وملايين الرجال رهن اشارتك.

أذكر أننا في منتصف الصيف، متى أصبح اليوم ضبابيا وتحولت السماء للون رمادي يميل للسواد! متى انقلب الهواء لأعاصير متمردة على ربيع قد انتهى للأبد وصيف لم يأت أبدا!

إنها السماء غاضبة على عقد صفقة رخيصة لشراء عاهرة، أتساءل كيف حال أم موسى وهي تلقيه في اليم وتعاند تمزق قلبها، ماذا شعرت اللعينة التي أمامي وهي تقذف في وجهي تلك الكلمات الدنيئة!

العالم شديد السواد والدنيا غاية القسوة أو الشيطان قد ارتدى أجساد كل البشر. كنت أعتقد أنني فقدت حاسة السمع لولا أنني سمعتها تسألني عن رأيي، أود أن أمزق جسدها أنهال عليها بضربات بوسع طاقة غضبي، أحطم رأسها الأحمق بمطفأة السجائر الزجاجية ولم أكن قاسية كما يجب أن أكون.

كررها أبي كثيراً أنني ساذجة أو أبسط ما يكون على الفطرة ولا أعرف أي شيء عن الغابة التي بخارج أسوار منزلي، لكنني لم أفهم المعادلة المستحيلة، أن أعطي عمري لدراسة وتعلم وأضف إليه الجد والانضباط فينتج قراراً غير معتمد بالتقاعد في المنزل!! أي غباء هذا!

النهايات السعيدة تعاندني أما الكئيبة فدوماً تسرع لاحتضاني.

وللخيانة غفران، أيهذا الوطن العزيز الذي يسكن قلبي منذ أول تحية للعلم في طابور الصباح الابتدائي، تحية طبيبة من ابنة مقهورة، قل أي شيء إلا أن تحقرني وتجعلني فريسة لأولئك الذين يتاجرون بأحلام الخريجين مستغلين بشاعة ما نحن عليه، قلبي يؤلمني كثيراً عن انعدام كل شيء في عيني.

أيهذا الوطن! متى يصمت الاعتياد وتتحدث الموهبة، تصرخ المهارات وتثور القدرة على القيادة. هناك في منتصف قلبي غصة، وبأسفل حلقي مرارة وفي نفسي جرح عميق وبكل روحي تنهيدات أسى شاهدة على هزيمتي وسقوطي في وحل الفشل لأسباب لا شأن لي بها.

مكاتب التوظيف حل لا بأس به، هدنة لطيفة لتنتشلني من براكين أفكاري، راحة مؤقتة لعقلي مما تحمله منذ الصباح وحتى وداع

الشمس في أحضان الغروب، تبتسم لي القابعة وراء جهار الحاسوب كيد حنون رقيقة وهي تقول مبارك عليك الوظيفة، لأول مرة في الحياة يعزف قلبي بدلا من نبضه المعتاد، الحق أن العدل مهما قل يستحيل أن ينعدم.

أجلس في قاعة كبيرة استعداداً للقاء رئيسي في العمل، على أتم استعداد لاستماع كل ما يلفظ، طاقة أمل دافئة كالشمس تغلف قلبي، أعدل من وضع نظارتي الطبية وأهذب خصلات شعري المجهدة وألقي نظرة أخيرة على هيئتي، خطوات قليلة تفصلني عن عالمي الجديد، أجلس أمامه متأملة وقاره، يقول بشيء من الحماسة "خمسمائة جنيه شهرياً وتسعون أخرين مكافأة في حالة بذل أقصى ما لديك" صدمة أفقدتني رغبتي وقدرتي على الرد! وظائف منهكة بمرتبات مخزية..

أتسكع في الطرقات مستندة على خيبتي ومصطحبة ملف بلاستيكي يحوي تاريخ دراستي وعمري.

الآن ألبي نداء معدتي في حقها للصراخ من الجوع، مطعم متواضع وطاولة بائسة تتسع لي أنا وفشلي، يتقدم إليّ بسرعة متمهلة..

- مساء الخير سيدتي.
- صابرين حامد إسماعيل، بكالوريوس تجارة، أجيد الانجليزية وأتقن الفرنسية وأحسن الأصغاء مع قابلية أبدية للتعلم، أرغب في رغيف من الفول.

***